تنامي التيارات الاصولية في اوروبا : الاسباب والتداعيات

م.د. آمنة محمد علي / الدراسات الأوربية

على الرغم من ان كلمة اصولية* لاتدل في معانيها على التعصب او التشدد والعنف ، الا ان كثرة تداولها اعلاميا وسياسيا واقرانها مع افعال تتصف بالترهيب والتخريب والعنف جعل منها عنوانا لتلك الافعال، ومع كونها لاتقتصر على دين او مذهب او ايديولوجية سياسية ولاتختص بأمة معينة ، الا انها اليوم قرينة للتنظيمات المتطرفة من الذين ينسبون انفسهم الى الاسلام السلفي الجهادي، خلافا لما يتضمنه معناها في سياقاته التاريخية من دلالات للاصلاح والتجديد تتسم بسمات مجتمعها وعصرها .

لقد افصح الفعل الارهابي الذي قام به النرويجي اندرس بريفيك في اوسلو في ٢٢تموز/ يوليو ٢٠١١ ، عن مدى تحامل الاعلام الغربي على الاسلام، عندما اتهم تنظيم القاعدة والجماعات الاسلامية المتطرفة بالمسؤولية عن هذه المجزرة ، هذه الحملة التي طبعت صورة الارهاب بالاسلام والمستمرة منذ تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ .كان لها تداعياتها الخطيرةعلى المشهد السياسي الاوروبي، فقد جرى استغلالها من قبل احزاب يمينية متطرفة كانت قبل ذلك تعد هامشية على في الحياة السياسية ولاتمتلك قواعد جماهيرية تتيح لها فوزا يؤهلها بأن تكون جزأ من عملية صنع القرار السياسي وادارة الدولة في تلك البلدان .لقد عملت تلك الاحزاب اليمينية على استغلال عواطف ومشاعر شرائح اجتماعية معينة ، لتتمدد من خلالها وتتسع قواعدها الشعبية وبالتالي ارتفاع حضوضها الانتخابية .

ان عقيدة تلك الاحزاب اليمينية كما تدعي تهدف الى فرض التقاليد والقيم بعيدا عن العنف ، الا ان واقع الامر يثبت بأن فكرها وردود افعالها ومواقفها ، اتسمت دائما بالتطرف ومثلت ارضية خصبة للافكار المتشددة ، اسهمت في اتساع دائرة العنف وصولا الى ماقام به بريفيك من اعمال ارهابية ، بعد ان تغذى من الشحن الايديولوجي التعميمي ضد المسلمين ، فقد جعل من فعله المخالف لكل الاعراف والقيم الانسانية والدينية، والذي ثبته في وثيقة من ١٥٠٠ صفحة ،نقطة الانطلاق بوصفه الملهم والمبادروالدافع باتجاه صحوة اوروبا لانقاذها من الغزاة المهاجرين من المسلمين وذوي البشرة السوداء. نعم ان تلك الافكار وجدت لها رواجا داخل المجتمعات الاوروبية لاسيما بين اوساط الشباب، لتصبح في النهاية خطرا على دولها وعلى الامن

والسلم الدوليين كما هو الحال بالنسبة للجماعات المتطرفة من امثال تنظيم القاعدة والجماعات الارهابية الاخرى عبر العالم.

ان خطابات وافعال تلك الاحزاب التي تصنف على انها اصولية تتسم دائما بالعنف ومحاولة زرع الفتن والتحريض على الكراهية من خلال مهاجمة مقدسات الاخرين لاسيما المسلمين منهم .فقد اعلنت احزاب من اليمين المتطرف من دول اوروبية في مدينة انفير البلجيكية عام ٢٠٠٨، تأسيس منظمة جديدة تهدف الى مكافحة ما اسمته "اسلمة" اوروبا . في حين تحفل الخطابات المتطرفة لحزب "الجبهة الوطنية "بقيادة جان ماري لوبان وابنته مارين لوبان، بالتحريض على معادات الاجانب والدعوة الى طردهم من فرنسا،لاسيما العرب والافارقة المهاجرين ، وقد انضم الى لواء اليمين المتطرف او مايعرف بخلايا النازيين الجدد، ثم تبعها عملية تدنيس قبور الجالية الاسلامية في فرنسا في ٢٠٠٩-٢٠١٠ التي تبنوها ، اما في هولندا فقد اتهم حزب الحرية الذي يقوده النائب في البرلمان الهولندي خيرت فيلدرز، بالمسؤولية عن ازمة حرق المصاحف التي تسبب بها شريط يحرض على العنف ضد الاسلام ، وعلى الرغم من الفكر الالحادي لفيلدرز، الا انه يدعي اعتزازه بالتاريخ المسيحي اليهودي الذي بني عليه المجتمع الاوروبي ، وفي ايطاليا فان اليمين المتطرف ورث الفكر الفاشي لموسوليني ، ولكنه اقل تاثيرا ولايمتلك حضور قوي في الساحة السياسية الايطالية ، في حين يختلف الامر في المانيا ، مهد النازية ، اذ ينتشر اتباع اليمين المتطرف في جماعات الضغط القوية، فقد شهدت البلاد حادثة مقتل مغتربة مصرية تدعى مروة الشربيني على يد يميني متطرف .

والسؤال الذي يطرح نفسه ، هل تنحصر اسباب انتشار التيارات الاصولية المتطرفة بالاثر الذي يحدثه الاعلام المعادي للمسلمين، ام انه هو الاخر نتاج لعوامل ومؤثرات اخرى ؟

في الحقيقة فان الفعل الاعلامي يمثل الجزء الظاهر من تلك الاسباب ، اما المؤثرات الحقيقية وراء ظهور واتساع تلك التيارات فتعود الى :

١- عوامل اقتصادية : تعاني اغلب دول اوروبا منذ قرابة الثلاث عقود، من صعوبات اقتصادية القت بثقلها على كاهل الفرد الاوروبي بسبب تفشي البطالة والركود الاقتصادي والتضخم في الاسعار ثم جاءت الازمة المالية العالمية لتزيد الامر سوءا ، وسادت حالة من الاحباط والتخبط سواء على مستوى السياسيين الذين عجزوا لحد الان عن ايجاد الحلول اما على المستوى الاجتماعي فلم تعد لدى الفرد الاوروبي الثقة باولائك السياسيين مما جعل البعض منهم يجد ضالته عند الاحزاب المتطرفة التي اقنعته بأن هؤلاء الاجانب يسرقون فرص عملهم ويثقلون على كاهل الدولة التي تنفق عليهم من الضرائب التي يدفعها اهل البلاد الاصليين.

٢- تفكك الاتحاد السوفيتي الذي نتج عنه دويلات تبحث عن اصولها العرقية فضلا عن تجربة الاندماج الاوروبي التي قامت على اساس الاصول الاوروبية والمسيحية للدول المسموح لها بالانضمام ، في حين رفضته احزاب اليمين المتطرفة وعدته عبئا عليها لاسيما في الدول ذات الاقتصادات الاكثر قوة فتراها تارة تصرح بضرورة الانسحاب من الاتحاد الاوروبي وتارة تنادي باخراج الدول الضعيفة اقتصاديا وعدم السماح لدول ذات طابع اسلامي بالانضمام مثل تركيا.

٣- العولمة الثقافية والانفتاح على الثقافات الاخرى اثار القلق لدى الكثيرين من فقدان الهوية والتراث الوطني مما اذكى روح التطرف والتشبث بكل ماهو تقليدي وتراثي ونابع من قيم ثقافية اوروبية ومع اختلاف العقيدة الاسلامية وتناقضها مع بعض الظواهر الاوروبية فان الاحزاب اليمينية تتهمها بنشر ثقافة تختلف عما اعتاد عليه الاوروبيون وتسعى الى نشر هوية اسلامية.

٤- الانظمة التعسفية في البلاد التي يهاجر منها الشباب الى اوروبا اذ تؤثر الاوضاع السياسية والاقتصادية وتدعو الى البحث عن حياة افضل في وقت يبقى هؤلاء الشباب الذين هاجروا لاسباب اقتصادية او سياسية متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم في عزلة عن المجتمع فهم لم يختاروا العيش في اوروبا لاسباب تتعلق بثقافة اوروبا او تراثها مما يخلق حاجزا بينهم وبين المجتمع الاوروبي الذي يعدهم دخلاء على بلدانهم ويطالب بترحيلهم منها، فضلا عن المطالبة بتقنين الهجرة .

٥- الافعال التي تقوم بها بعض المنظمات والحركات الاسلامية سواء بارتكاب اعمال ارهابية او خارجة على القانون اوبمسيرات الكراهية ضد البلدان التي تاويهم او باصدار فتاوى تحرم بعض الاطعمة والمشروبات واعلانها والدعوة الى ارتداء ازياء لاتتناسب والبيئة الاوروبية كالحجاب والنقاب بالنسبة للنساء والذي يعده الاوروبيون نوع من الاضطهاد الذي تتعرض له المرأة المسلمة ، ولايمكنهم فهم المعاني الحقيقية له.والكثير مما يدخل ضمن اطار الاختلافات العقائدية والثقافية التي باتت تثير التذمر لدى الفرد الاوروبي الذي يعيش حالة من عدم الامان والقلق من امكانية فقدانه لمورد عيشه وفقدان هويته وربما الخوف من التعرض الى حادث ارهابي ، ولكن ماكان يُخشى وقوعه على يد جماعات اصولية اسلامية جاء على يد متطرف يميني قتل بدم بارد ثمانية وستون فردا معظمهم اطفال ومسيحيون.

ان خطر الاحزاب الاصولية اليمينية المتطرفة بات اليوم يهدد الدولة وابنائها الذين انشغلوا بكراهية المسلمين ودعم تلك الاحزاب التي عدوها منقذة لهم .

ان وجود منظمات دولية تحمل افكار اليمين المتطرف هو مصدر خطر على الامن والسلم الدوليين فالعالم لم ينسَ مااحدثته روح الكراهية ضد الاخرين من حروب ودمار في الحربين العالميتين وفي الصراعات العرقية التي تتفجر ضمن البلد الواحد او مع دول اخرى، فلابد ان تعمل على تحجيم تلك الجماعات وسد الطريق عليها من خلال معالجة الظواهر والاسباب التي منحتها القوة والسطوة .فالتطرف والارهاب سلوك لايتعلق بدين او مذهب او فئة بحد ذاتها .

*** الاصولية باللغة العربية تعني، قاع الشيء وما يبنى عليه غيره، سواء أكان حسياً كالأساس الذي يشيّد عليه البناء فهو أصله، أم عقلياً كبناء الأحكام الجزئية على القواعد الكلّيّة.وهي اصطلاح يتعلق بعلوم الدين ، ويعرَّف بأنه العلم بقواعد الفقه الإسلامي وبالأدلة التي تؤدي إلى تقرير الأحكام الشرعية وبمناهج استنباطها. ولعل أهم المعاني التي ينطوي عليها مصطلح الاصولية في الثقافة العربية الاسلامية ، معنى (التأصيل)، أي إرجاع الأحكام العملية الجزئية إلى القواعد الكلية، وإضفاء صفة الشرعية، ويتم ذلك بإرجاع كل منها إلى أصل من الأصول المعروفة في مرحلة التأسيس، أو إلى قاعدة من القواعد الكلية التي لا يدانيها الشك، كإرجاع الديمقراطية إلى الشورى، مثلاً.**

اما في اللغة الانكليزية فهي، اصطلاحٌ سياسي فكري يشير إلى نظرة متكاملة للحياة بكافة جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية نابعة عن قناعة متأصلة والايمانٍ بفكرةٍ أو منظومة قناعات، تكون في الغالب تصوراً دينياً أو عقيدةٍ دينية. أن الكلمة جاءت من عنوان سلسلة نشرات أو كتيبات سميت الأصول أو الأساسيات والتي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة ١٩١٠ . ١٩١٥ م واستخدم فيها مصطلح الأصول ليعنى عناصر العقيدة التقليدية أي النص كوحي وسلطة، وألوهية المسيح ومعجزة إنجاب مريم العذراء وغيرها من الثوابت التي يراها الأصوليون المسيحيون اليوم.